أثر خطبة الجمعة في إصلاح المجتمع الإسلامي النيجيري وخطبة الشيخ حسن عبد الله القادري نموذجا

بقلم/ إبراهيم حنفي يوسف

مقدمة:

تتمحور هذه المقالة حول "أثر خطبة الجمعة في إصلاح المجتمع الإسلامي"، فممّا لا يُستغرب فيه أن خطبة الجمعة من أهم وسائل اتصال بالجماهير، فلها مزايا كثيرة لا تتوافر في منبر إعلامي آخر، إذ إنها تمثل شعيرة من الشعائر الإسلامية وتتم في جو مهيب ومناسب، تتهيّأ له النفوس للتلقّي والاستماع كما أنها تتميّز بوجوب الإنصات إلى الخطب وعدم الانشغال عنه مما يميزها عن سائر الخطب والمحاضرات والندوات.

ويرجع احتفاظ خطبة الجمعة بمكانتها العالمية وقدرتها الكبيرة على التأثير في المسلمين إلى اعتبارات منها:-

1- احترام المسلمين للخطب المنبرية على مرّ العصور، وقد اهتم بها الفقهاء اهتماماً من خلال دراسة أحكامها وعلاقتها بصلاة الجمعة.

2- الأمر بالسعي لصلاة الجمعة حين سماع النداء، " 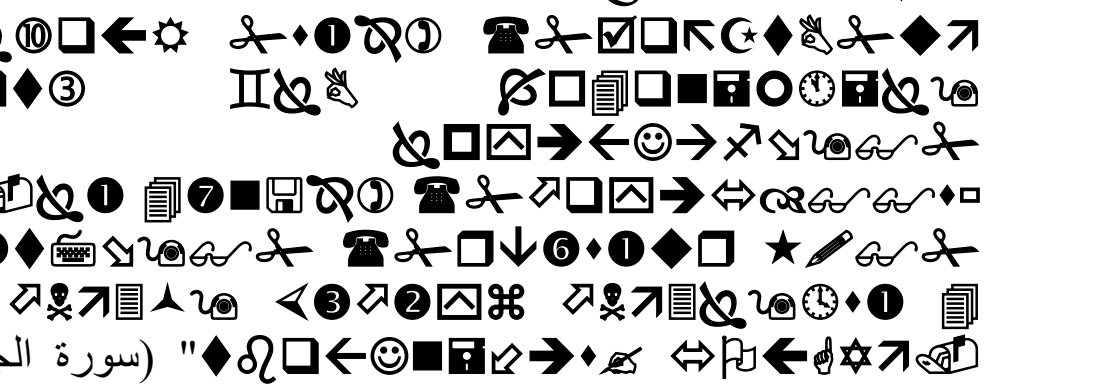 " (سورة الجمعة، آية: 9).

3- مجئ الخطبة كل أسبوع يدل على أهميتها وضرورة العناية بها من قبل الخطيب والسامعين حيث يستمع المصلّي في العام الواحد لاثنتين وخمسين خطبة.

4- الأجر العظيم الذي وُعد به الذين يبادرون لحضور الخطبة، ودعوتهم إلى التواجد بالمسجد قبل صعود الخطيب على المنبر وإرشادهم إلى ضرورة التركيز مع الخطيب وأن يعطوه انتباهاتهم.

وعلى هذا فتتمثل عناصر هذه المقالة في مفهوم الخطبة ونشأتها ثم مدلول خطبة الجمعة، وتقسيم العلماء لخطباء الجمعة، ويليه أثر خطبة الجمعة في إصلاح المجتمع الإسلامي النيجيري بالنظر إليه في ثلاثة جوانب، ثم عرض خطبة رائعة للشيخ حسن عبد الله نموذجا مع التعليق اليسير عليها.

مفهوم الخطبة: هي الكلام المنثور يخاطب بها متكلم جمعا من الناس لإقناعهم، ويقول أحمد حسن الزيات: "والخطبة والوصية كلتاهما يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضرّ، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم، والأخرى تكون لقوم معيّنين في زمن كوصية الرجل لأهله عند النّقلة أو الموت"[1].

نشأة الخطبة وتطورها في العصور الأدبية:

الخطبة في العصر الجاهلي:

لقد اشتهرت الخطبة الأدبية في العصر الجاهلي لما كان عليه العرب من النّعرة والحميّة، وشنّ الغارات في المدافعة عن النفس والمال، والعرض والمفاخرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب، وقوة العصبية وشرف الخصال والشجاعة والكرم والنجدة وحِماية الجار وإباءة الضيم، فكانت الخطبة فيهم فطرية ولهم ضرورية مع ما فيهم من ذلاقة اللسان وقوة البيان قضَت بها طبيعتها المعيشية، ولا عجب في أن يكون عند العرب قبل الإسلام تلك الخطبة الممتازة فإنها أثر انفعالات تنشأ عن الحوادث التي تمسّ الجماعات، وكان من عادة الخطيب أن يقوم معتمداً على مخصرة أو عصا أو قناة أو قوس، وربما أشار بإحداها أو بيده تأييداً للكثير من مقاصده،[2] لكن ليس في خطبتهم شيء يمس الدين الإسلامي إلا ما جاء في أواخر العصر من بعض الخطباء مثل قسّ بن ساعدة الأيادي وأكثم بن صيفي، وقد أجمع علماء الأدب على متانة قسّ وأكثم وأنهما أرعى للحق وأبرّ بالمكارم خصوصا وأن في خطبتهما كلاماً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأحوال الآخرة[3].

نموذج من الخطب الجاهلية:

خطبة هاشم بن عبد مناف "جوار بيت الله":

"يا معشر قريش أنتم سادة العرب، أحسنها وجوها وأعظمها أحلاما وأوسطها أنسابا وأقربها أرحاما.

يا معشر قريش أنتم جيران بيت الله، أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوار بيته. فإنهم يأتونكم شعثا غبرًا من كل بلدٍ. فوربّ هذه البنية، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه. ألا، وإني أخرج من طيّب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام. فواضعه فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك، فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا، لم يؤخذ ظلما، ولم يقطع فيه رحم، ولم يغتصب".[4]

الخطبة في العصر الإسلامي:

وابتدأ طور الخطبة الإسلامية بظهور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطيبا غير شاعر، وأول موقف وقفه للخطبة كان يوم نزل قوله تعالى: " 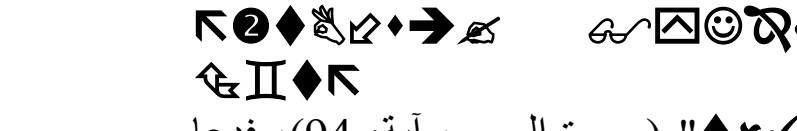 " (سورة الحجر، آية: 94)، فدعا قومه وهو على الصّفا ثم قال: "أريتم لو أُخبركم أن فيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" (رواه البخاري ومسلم)، وبالاختصار فقد كانت الخطبة في الصدر الأول من الإسلام في أسمى الدرجات في الفصاحة والبلاغة آخذة أسلوبا حيا متيناً مؤثراً مع أحكام في الصنعة وحسن الافتتاح وجودة الاختتام[5].

نموذج من خطب العصر:

خطبة أبي بكر الصديق يوم خلافته:

"أيها الناس إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ حقّه، القويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ..." إلى قوله "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم..."[6].

الخطبة في العصر الأموي:

بلغت الخطابة في زمن الأمويين أوج ازدهارها، وطبعت سائر الفنون بطابعها حتى أخذ الشعراء ينظمون القصائد ويلقونها إلقاء خطابيا بين يدى خليفة أو وال.

فليس غريبا بعد ذلك أن يقول المؤرخون حين يعمدون إلى ذكر الولاة وما صدر عنهم من أوامر ونواه وقوانين. خطب فلان فقال ولم يقولوا تحدث فلان أو صرح فلان، ولهذا الازدهار عوامل منها: الصراع العنيف الذي تشب بين الأحزاب، واتساع رفعة الأميراطورية وكثرة الحروب التخوم مما اقتضى إلقاء، وانتشار الوعظ والإرشاد معتمدين على القرآن والحديث، وقد اتخذ الواعظون مراكزهم في المساجد حيث كان الناس يتحلقون حولهم ويصغون إليهم، ومن أشهر هؤلاء تميم الداري والحسن البصري وغيلان الدمشقي، كذلك ظهر ضرب من الوعظ المصوغ بقالب قصصي يلقى في جيوش المسلمين إبان الفتوح، وكان الخطيب القاضي يطوف بين الجنود محرضا مشجعا مذكرًا بآيات الله وما أعده من الثواب للمجاهدين ومن هذا القصص نشأ فيها بعد تاريخ الفتوح وسير المغازي.[7]

نموذج من الخطب الأموية:

خطبة سحبان وائل:

> "إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار مَمرِّكم، إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضا يكون لكم، ولا تخلفوا كلاّ يكون عليكم".[8]

الخطبة في العصر العباسي:

انتقلت الخلافة إلى بني العباسي حتى أخذت الخطبة تتقهقر وتضعف والسبب في ذلك أن العوامل التي دفعت بها إلى الازدهار في زمن الأمويين أخذت تتقلص شيئا فشيئا، لتعبير ظروف العصر، وأحوال الناس فيه.

فالصراع العنيف الذي بلغ ذروته في القرن الأول للهجرة خفت أيام العباسيين، وساعد على ضعف الخطابة انتشار الكتابة العلمية وزاد في هذه الظاهرة التقهقرية وضوحا كون طائفة من الأمراء والوزراء والقواد ورجال الدولة أصبحوا من غير العرب لاشتراك الفرس في الانقلاب العباسي ولاعتماد الخلفاء الذين عقبوا

المأمون على أتراك ما وراء النهر[9]، والخلفاء أنفسهم فقدوا ملكة الخطابة وإن كانوا في نسبهم عربا قرشيين، فقد احتاجوا عن الناس إلا في الاعياد والمناسبات الطارئة، وأكثرهم كانت أمهاتهم فارسيات أو رميات، فضاعت منهم بلاغة العرب وقوة عارضتهم[10].

نموذج من الخطب العباسية:

خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

> "أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه، لإعزاز دينه وإعلاء حقه. إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أَجْزَزْناه خبئ هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه".[11]

الخطبة في العصر الحديث:

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة. فلما دعا داعي الثورة العرابية ظهرت الخطابة السياسية على ألسنة زعمائها، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمّد عبده وأديب إسحق واللفاني. ثم مرن علينا كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجامع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والسياسة. ولكن الخطابة لم تجلْ عنها أعقاب العلة المزمنة إلا في عهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة 1908م، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده. وأقوى معين في إيقاظ بلاده. ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شباب مصر ولا سيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة. ولعل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيبًا حافل القريحة، قوي العارضة، جهوري الصوت، قبل المغفور له سعد باشا زغلول. وإنا لنتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقيًا سريعًا؛ فإن الحرية السياسية، والمنافسات الحزبية، والمناقشات البرلمانية، من أبلغ العوامل أثرًا في رقي الخطابة. ولولاها ما كان ديمُستين في اليونان، ولا شيشرون في الرومان، ولا عليٌّ في العرب.[12]

نموذج من خطبهم:

خطبة مصطفى كامل ألقاها بالإسكندرية في 22 أكتوبر من سنة 1901م:

"بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي! لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر! يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهوّر في حبها! وهل يستطيع مصري ألا يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها، فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلاها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون! انظروها وتأملوها، وطوفوها، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطنا أعلى مقامًا، وأسمى شأنا، وأجمل طبيعة، وأجل آثارًا، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

أسألوا العالم كلّه يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبها الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها، وسلم أزمتها للأجنبي.

إني لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا".[13]

وأما نشأتها في بيئتنا النيجيرية فقد ذكر الكتاب والأدباء المحدثين عن نشأة الخطبة العربية في كتب الأدب النيجيري من أمثال كتاب الثقافة العربية في نيجيريا لِعَليّ أبو بكر، وحركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا لشيخو أحمد سعيد غلادنث والإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني للشيخ آدم عبد الله الإلوري أن نشأة الخطبة العربية متأخرة في نيجيريا، والعلل في ذلك منها أن نيجيريا ليست دولةً عربية ولكنها إسلامية، بدأت الخطبة على هيئة وعظيةٍ وهي الخطبة المنبرية التي تلقى باللغة العربية في الجمع والأعياد الإسلامية، وقد احْتلت خطبة الشيخ عثمان بن فودي مكانة مرموقة في نشر اللغة العربية والدعوة الإسلامية حيث اتخذ الشيخ خطبة كل يوم الجمعة درسا أسبوعياً وخطبة العيدين درساً سنوياً[14].

وأما خطبة الجمعة التي هي موضوع مقالتنا فهي "درس أسبوعي لتوعية عامة المسلمين بالأحداث الجارية لاتخاذ التدابير اللاّزمة لها[15]، كما تهدفُ إلى

الوعظ والإرشاد ومعالجة الشئون الرّوحية، وتدور حول إثارة المشاعر لاعتناق العقيدة وتطبيق شريعة الإسلام والحث على التقى والصلاح وتوجيه النفوس نحو الله والنظر إلى الحياة الدنيا على أنها عرَضٌ زائل وإلى الحياة الآخرة على أنها جوهرٌ خالدٌ، إضافة إلى ذلك، فهي من وسائل إصلاح الفرد والجماعة فهي تحتلّ موقعاً متميّزاً في تبليغ الدين ونشر الدعوة وبث الإصلاح، وهي شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة، أوجب الله على المسلم المكلّف شهودَها بشروطها التي بينها أهل العلم في كل أسبوع مرةً، ولهذا التكرار غرضه وغايته في مواصلة حوار النفس ومواجهتها ومحاسبتها، فإن النبي عليه الصلاة والسلام سعى إلى الاتصال بأكبر عدد ممكن من المسلمين ليعرّفهم دين الله ويدعوهم إلى الالتزام به[16]، وإذ لم تكن وسائل الاتصال المعروفة اليوم موجودة في ذلك الزمن فقد عمد النبي (ρ) إلى استخدام خطبة الجمعة كما اضطرّ إلى ذلك خلفاؤه الراشدون وصحابته الذين بُعثُوا إلى الأمصار يؤمّون الناس في الصلاة ويشرحون لهم أمور دينهم[17].

ولقد فرض الإسلام على معتنقيه الاستماع إلى الخطبة فرضاً، بحيث لا تقوم صلاة الجمعة ما لم يخطب فيها خطبتان؛ الأولى منهما طويلة والثانية قصيرة[18]، وهذه الخطب لا تقتصر على الوعظ الديني فحسب، بل تتناول شئونا إنسانية أخرى تتصل بالسياسة والاجتماع إذاً، فخطبة الجمعة منذ بدئ الرسالة المحمدية لا تزال هي أكثر الوسائل فعاليةً في نشر الحق وبثّ الفكر الصحيح، ومخاطبة مختلف الفئات والطبقات والمستويات نظرا، إلاّ أنّ الخطيب المؤهل الموفّق هو الخبير في إفهام العامة والبليغ في التأثير على الجماهير، فللخطبة فعلها المباشر وسرعتها في توجيه الرأي العام، فلخطيب الجمعة دورٌ كبير وأثر بالغ في مجتمعه وسامعيه، فهو كالمرَبّي والمعلم وبقدر إخلاصه يتبوّأ في قلوب الناس مكاناً وقبولاً[19].

فمُجمل القول أن خطبة الجمعة أساس ووسائل نشر الدعوة الإسلامية وأن لها في تحقيق هذا التأثير، فمن الضرورة في هذه العجالة عرض أنواع خطباء الجمعة –كما بيّنها أهل العلم- لنعرف الخطيب الصالح للقيام بهذه المهمة (إصلاح المجتمع) قبل الخوض في بيان جوانب تأثير خطبة الجمعة في إصلاح المجتمع الإسلامي.

تقسيم العلماء لخطباء الجمعة:

قسّم بعض العلماء خطباء الجمعة على نوعين، خطيب داعية، وخطيب واعظ، فالخطيب الداعية هو الخطيب ذو الثقافة الواسعة يحمل هموم عصره، ويعرف أوضاع مجتمعه، ويجعل هدفه إصلاح المجتمع يستمدّ من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ومن شأن هذا الخطيب يعنى مؤهلاته حتى يكون داعية أن يكون عالماً يعرف الإسلام معرفة جيدة، قرأ القرآن وحفظه واطلّع على السنة وميّز صحيحها وحسنها وضعيفها، ونال حظّه من المعرفة بأحكام الإسلام، وميّز بين الحلال والحرام والمكروه والمباح، وعرف معرفة حسنة من تاريخ الإسلام وبلاده وأهله وتاريخ العالم ليتمكّن من استخلاص العظات والعبر من مصارع الأمم وأوضاعها ولما في هذه المعرفة من فوائد وعظات[20] ولا سيما أن القرآن الكريم نبّه على هذه المعرفة من حيث النظر في تاريخ الأمم وأحوالها كما في قوله تعالى: " " (سورة الروم، آية: 9).

ومن شأن هذا الخطيب أن يكون له إلمام جيد بعلوم عصره لا سيّما في عصرنا الحاضر، مما يعطيه قاعدة مهمة لإقناع مستمعيه بحديثه، ومما يحضّ مستمعي خطبه إلى حسن الاستجابة لما يقول.

أما الخطيب الواعظ فهو أقل ثقافة ممن سبقه، فهو رجل له حظه من الفقه والمعرفة بالكتاب والسنة وله حظٌّ أيضاً من العربية وهو يؤدي مهمته في نطاق علمه ومعرفته وينتفع به ولكن مجال انتشار خطابته أقل من صاحبه، وربّما تصدر منه أخطاء ترجع إلى عدم إدراكه لواقعه إدراكا جيداً وقد يصدر منه خلط غير متعمّد

في بعض الاستشهادات[21]، وعلى كل حال فإن خطباء الجمعة ليسوا على درجة واحدة، وهذا شأن الله في الناس وفي خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أثر خطبة الجمعة في إصلاح المجتمع الإسلامي:

لا شك أن لخطبة الجمعة تأثيراً في إصلاح المجتمع الإسلامي وهذا التأثير يتمثل في جوانب متنوعة ينبغي تسليط الأضواء عليها لتكون واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، وهو كالآتي:

أولا: الجانب الديني:

فالكلام في هذا الجانب طويل لكن نقتصر فيه لضيق المقام، فخطبة الجمعة تأكيد على التوحيد والعقيدة وترسيخ الإيمان، الثاني علاج الأخلاق وكذلك انطلاقا من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، وهي أيضاً التركيز على المعاني الكلّية للشريعة ومقاصدها[22]، فهذا من أفضل ما ينبغي أن يعتني به الخطيب فيحاول أو يوجّه الأنظار إلى حقيقة المعاني التي تحكم الشريعة مثل الإيمان والإحسان والإخلاص والنصيحة، والتقوى والأمانة والاستقامة، ويركز على تحريرها وبيان أسسها ومقوماتها حتى تستقرّ في العقول وتستر بها النفوس؛ لأن كثيراً من الناس وهم مسلمون لا يكادون يعرفون المدلول الحقيقي، أو لا يكادون يعيشونه في نفوسهم لأنهم يحتاجون إلى التذكير بشكل متواصل، وتكرار خطب الجمعة في كل أسبوع تُعين على ذلك.

الثاني: الجانب السياسي:

الخطبة السياسية، وقد عرفها المفكر اليوناني القديم أرسطو بأنها الخطبة الاستشارية.

وقد قسمها إلى تشاجرية تنظر في الوقائع والأحداث الماضية وهي أقرب إلى المنطق والجدل، وخطبة الجمعة تثبيتية وثائقية تلقى في المحافل العامة للتحسين والتقبيح والكيد، وهي أقرب إلى الأدب، وأخرى تشاورية تجرى في الجمعيات والأحزاب السياسية وموسسات الحكم المختلفة حيث تنظر في القضايا الراهنة والمستقبلية المتصلة في أمور تنظيم شئون الشعوب وعلاقتها بالنظام السياسي.[23]

ويتكون الخطبة السياسية من عدة جمل موجة عن قصد إلى الملتقي بقصد التأثير فيه وإقناعه بمضمون الخطاب عن طريق الشرح والتحليل والإثارة، وهي تتضمن أفكارًا سياسية، ويهدف إلى تغيير النفوس والعقول والأفكار والواقع. وتنبع

قوة أي خطاب السياسي من ثقافة المتحدث ومدى القوة اللغوية وانسجامها مع الحديث ووعى المتحدث السياسي واحترامه لمن يسمعه ويوجه له الخطاب[24]، ويعتبر الخطيب هو الفاعل السياسي الذي يقوم بإلقاء الخطبة السياسية أو إجراء الحوار السياسي أو الأدلاء بالتصريحات السياسية حيث يقوم بتوصيل رسالة واضحة لها هدف أو مجموعة أهداف محددة بعينها.

والخطاب يتكون من مقدمة ومتن وخاتمة حيث يستهل الخطيب خطبته بمقدمة تتكون من مجموعة من الكلمات العذبة القوية والمنتقاة على أن يلي هذه المقدمة الموضوع الذي تتمحور حوله الخطبة، ويجب على الخطيب أن يراعي التسلسل المنطقي للأفكار والأحداث المتصلة بالواقع والظروف المحيطة، ويشترط في الخطيب أن تكون مخارج الحروف سالمة من العيوب وأن يكون صوته جاهرًا وأن يكون حسن المظهر وأن يكون صوته بحسب الموضوع ونوع الخطيب وأن تتوافر فيه الجرأة واستخدام تعابير الوجه كما بجب أن تكون لغة سهلة ومختصرة وألا يتعالى بالمعرفة والمعلومات وأن يحافظ على هدوء الأعصاب والتوازن الانفعالي، وأن يختم الحديث بالتركيز في أهم النقاط التي وردت فيه للتأكيد والتذكير.[25]

الثالثا: الجانب الاقتصادي:

فإذا كان ليوم الجمعة في الإسلام منزلة رفيعة، فإن الاقتصاد يحتل مكانة عظيمة وليس أدل على ذلك من أطول آية في القرآن الكريم لم يتناول عبادة من العبادات المعروفة (الصوم، أو الصلاة، أو الزكاة) وإنما اختصت بشرح تفصيلي لموضوع اقتصادي هو التداين.

وإذا كان أحد المستعمرين قد قال في فترة تشكل الحركات الوطنية ضدّ الاستعمار "لو أننا امتلكنا منابر المسلمين تحوّلنا بلادهم إلى مبادئنا في أيام قلائل"[26]، أجل، فإن خطبة الجمعة أسهمت في حلّ المشكلات الاقتصادية التي يمرّ بها عدد كبير من الدول العربية والإسلامية مثل: البطالة، وارتفاع الأسعار والإصلاحات الاقتصادية، وكيفية تفادى تداعياتها السلبية، وإن التأثر المجتمعي بالقضايا الاقتصادية يُفرض على خطيب الجمعة، وإن بعض الخطباء يتناولون بعض الجوانب الاقتصادية بطريقة تقليدية كالدعوة للتكافل الاجتماعي وإخراج الزكاة، والبعد عن الرّبا[27]، لو كانت الاستجابة لدعوات الخطباء للتكافل الاجتماعي على النحو المطلوب لكان الوضع الاقتصادي في الدول العربية والإسلامية أفضل بكثير مما هو عليه الآن؛ لأن القرآن الكريم قد أرسى القواعد الكلية لتنظيم الاقتصاد، وجاء بعناصر متكاملة تمدّ الفكر العلمي بحاجته منه، ويشتمل على الأسس التي

تكفل للجنس البشري أوضاعا اقتصادية تحقق له مستويات عليا من الرفاهية قبل أن يقوم علم الاقتصاد ويصل إلى ما وصل إليه من التقدم[28].

فالزكاة مثلا هي من أهم الأسس التي يقوم المجتمع وينظم بها اقتصاده، فهي من العوامل التي تقّلل الفوارق بين الناس في حُظوظ الدنيا، وبها تتجلّى مواساة الأغنياء لإخوانهم الفقراء كما أنها تدفع عن الأغنياء عواقب الحقد عليهم من نفوس الفقراء فتسود المحبة وتقوى أواصر الألفة والتعاطف والتراحم بينهم[29].

لعلّنا نكتفي بهذه الجوانب الثلاثة (الجانب الديني والسياسي والاقتصادي) اخترناها لكونها من ضرورات الحياة الإنسانية إذا صلحت صلح المجتمع الإسلامي وإذا فسدت فبالعكس، وفيما يلي نبذة تاريخية عن الشيخ حسن عبد الله القادري (الإمام الأكبر لجماعة أنصار الإسلام) وعرض خطبة له في إصلاح المجتمع الإسلامي.

نبذة تاريخية عن الشيخ حسن عبد الله القادري:

ولد حسن عبد الله القادري في أسرة مسلمة بكوفوردأ بجمهورية غانا في نهاية العقد الرابع في القرن العشرين 1940م. وكان والداه إلوريين أصليّين اتخذا كوفوردأ مسكنًا، وأبوه عالم كبير يعلّم أبناء المسلمين قراءة القرآن بغانا كعادة أجداده في إلورن نيجيريا، ولذلك نشأ الشيخ حسن في بيت علم غزير وأدب صالح وخلق حَسن تحت رعاية والديه رحمهما الله حتى صار مثالا حسنا بين العلماء العاملين.[30]

تعلمه وثقافته:

بدأ الشيخ حسن عبد الله القادري تعلم القرآن عند أبيه بغانا لكونه عالمًا مثقّفًا، وهو في سنٍّ مبكرٍ في السنة الخامسة، كعادة أبناء مسلمى إلورن بعد الإنفطام، ولم ينته من ختم القرآن حتى زار نيجيريا لأول مرة ونزل بمدينة أوفا عند أخيه الأكبر الحاج صالح عبد الله القادري، وفي سنة 1951م. التحق بمدرسة الشيخ محمّد كمال الدين "المدرسة الأدبية الإسلامية" وقتئذ وتحوّلت إلى مدرسة أنصار الإسلام، وأدخله الشيخ كال الدين في الصف الأول الابتدائ، وتخرج فيها عام 1957م، وكان من الفوج الأول في المدرسة، وكان فوجهم من الذين اشتغل بهم الشيخ كمال الدين وبذل جل أوقاته في تدريسهم العلوم العربية والإسلامية، حتى أصبح جميعهم عباقرة في العلم والمعرفة، منهم الحاج عبد المطلب حنبلي قاضي القضاة السابق للمحكمة الشرعية الاستئنافية بولاية كوارا وغيره، والمنهج الدراسي وقتئذ هو المزج بين

العلوم الغربية والدراسات العربية والإسلامية، فيجيد الطالب اللغتين: العربية والإنجليزية.[31]

وفي عام 1964م التحق الإمام بجامعة إبادن لنيل الشهادة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية (Certificate Course in Arabic Language) برنامج اعدّته الجامعة لمساعدة طلاب العربية على التواصل في العلم.

وفي آخر سنة 1966م كان أحد المرشحين الذين فازوا بنيل المنح الدراسية من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكانوا ثلاثة عشر طالبا في نيجيريا، رشحه الشيخ محمّد كمال الدين الأدبي كواحد منهم، حيث حصل الشيخ حسن في السعودية على شهادة الثانوية، والليسانس في الدعوة وأصول الدين، لبث في المدينة المنورة تسع سنين، وعاد إلى نيجيريا عام 1976م وقد شرب من منهل العلم والمعرفة، ولتبحّره في العلم عيّنه الشيخ محمّد كمال الدين إماما للجامع الأكبر لجماعة أنصار الإسلام بساحة المهعد الديني الأزهري بأوغيدي إلورن عام 1991م.

عمل الإمام حسن مدرسا ثم عميدًا في شتى المدارس الثانوية الحكومية تحت وزارة التربية بولاية كوارا حتى تقاعد عام 1995م،[32] متزوج ومرزوق بأولاد.

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أخلد لأهل طاعته السعادة الأدبديه والآخر عنده لأهل معصيته الشقاوة السرمدية وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه أرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأصلى وأسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فيا عباد الله يحدثنا الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "

" (سورة الحجرات، أية: 12) أُنْظُرُوا إلى ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من الآداب العالية والأخلاق الكريمة فإنها قد نهتنا عن أمورٍ ثلاثة يجب على كل ذى مروءةٍ أن يَنْزِهَ نفسه عنها ولا يرضى أن يتصف بأيّ صفةٍ منها: وهي سوء الظّن بعباد الله والتجسُّسِ وراءَ عيوبِ الناس لإظهارها وغيبتهم بذكر ما يكرهون تلك هي الأمور التي أدّبنا بها الله في هذه الآية الكريمة فهل نحن لذلك واعون، ولأمر الله تعالى مستمعون، وبآداب القرآن متأدِّبون.

عباد الله، والله لو قدرنا كتاب الله حق قدره واتبعنا ما جاء به من الآحكام لكُنَّا أسعدَ الناس حظاً وأَعَزَّهم مكافةً وأرفهَعم قدراً، ولكنّا أهْمَلنا آداب دينِنا، واتّبعنا شهواتنا فساء حالنا ووهنتْ رابطتُنا وتغيّرَت أنفُسُنَا وقست قلوبنا وأصبحنا أعداء متنافرين وخصوماً متناجرين.

عباد الله من أسوءِ ما يُؤْخذ علينا في أخلاقنا أننا كثيراً ما نسئُ الظنّ بغيرنا ونتعجّل الحكم عليه من غير أن نتبيّن أمره ونلم بأعراضه ومقاصده، وهذا الخلق شائعٌ في أفرادنا وجماعاتنا، وليس له من سبب سوى قصر النَّظَرِ أو عدم القدرة على مقاومة النفس ومغالبة الهوى، فلا بدّ من الاجتهاد في ضبط النفس والطمأنينة في الأمر حتى تنكشف الشبهات، ويبدو الحقّ أبلج واضحاً وبعد ذلك نحكم للمرء أو عليه، فاجتنبوا سوء الظن "والظن هو مُجرَّد التهمة التي لا سبب لها" فحرام أن يظنَّ الواحدُ منا بأخيه المسلم ظنا فاسداً من غير تثبيتٍ ولا دليلٍ فيتهمه في عرضه أو دينِه وقد يكون عند الله بريئاً فينتقمُ الله منه والله عزيزٌ ذو انتقام حرام أن نجعل للظن الْفاسدِ إعتباراً بيننا فنُرَتِّبَ عليه قطع العلائق الأخويّه، ونقصر في الواجبات الإنسانيّة، أو نبنى عليه عداءً وخصوماً.

عباد الله كما نهانا الله عن كثير من الظن كذلك نهانا عن التجسّسِ فحرام على كل مسلمٍ أن يبحثَ وراءَ عورَةِ أخيه المسْتورة ليظهرها حرام عليه أن يتتبع عُيوب أخيه الخفية ليعلِنَها، نعم لو تعين التجسس طريقا لرد مفسدةٍ كبيرة أو جلب مصلحة عظيمة لم يكن محرّما، كما إذا علمنا أن أشخاصاً عزموا على ارتكابِ جريمة سوءٍ مثلا فتجسسنا عليهم لِنَحُولَ دون وقوع الجريمة أو لنقبض عليهم أو تجسّسنا عليهم لمعرفة جُناةِ إرتكبوا جريمة وفرُّوا فإنه لا حرج في ذلك علينا.

كذلك نهانا الله في الآية المتقدمة عن الغيبة وهي أن تذكر أخاك بما يكره، وتنْسِب إليه ما يَشِينُهَ وتلْصَقَ به ما يخفضه في نظر النّاس وتصفه بقبيح ولو كان

فيه وترميه بنقيصةٍ وإن كانت حقاً عالقةً به. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ استغفروه إنه هو الغفور الرحيم. الجلسة الأولى.

الخطبة الثانية:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله أرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك محمّد وعلى آله وصحبه.

عباد الله، فإنه لحرام على المسلمين أن يتسامروا بتمزيق أعراض إخوانهم حرام عليهم أن يتفكهوا بنشر معايبهم حرام عليهم أن يجعلوا إخوانهم غرضاً يرمونه بألسنتهم في مجالسهم وأنديَتهم فيتحدّثون بعيوبهم الخلقيّة والخُلقية، ويشتغلون بأحوالهم الظاهرة أو الخفية.

عباد الله حرام على كل ذى مروءةٍ وأدبٍ أن يذهبَ به الحقدُ والتشفِّى إلى ذكر عيوب الناس إن صدقاً وإن كذباً ومن يفعل ذلك فهو ساقط المروءة شيِّءُ الأدبِ يأكل لحمَ أخيه ميتا وذلك هو الخسران المبين. نسأل الله تعالى أن يعيننا على إصلاح أنفسنا وتقويم إعوِجَاجِنَا فقد أفلح من زكاها وطهّرها بالطاعة وقد خاب من دسّاها ودنسها بالمعاصي وإلى الله عاقبة الأمور، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (ρ): "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث..." (رواه البخاري ومسلم).

عباد الله إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلهم تذكرون فاذكروا الله العظيم يذكركم والشكروه على نعمه يزدكم ولذكر إليه أكبر والله يعلم ما تصنعون. وأقيموا الصلاة[33].

التعليق على الخطبة:

1- مضمون الخطبة:

هذه الخطبة للشيخ حسن عبد الله القادري الإمام الأكبر لجماعة أنصار الإسلام بنيجيريا وخارجها، وهي خطبة دينية خالصة نهج فيها منهج الخطباء الإسلاميين حيث افتح بالحمد لله والصلاة على رسول الله واشتملت الخطبة على الموعظة الحسنة البالغة عند ما صوّب الخطيب نحو الإصلاح والتقويم لأخلاق المجتمع السيئة

والتي عرف بها المجتمع وتسبب الوباء وسوء العاقبة، لقد استطاع الإمام أن يركز على ثلاثة من هذه الأخلاق الشنيئة والخطيرة عاقبتها وهي سوء الظن، والتجسس والغيبة، وحاول أن يُبعدهم عنها بأسلوب حكيم رائع حتى يكونوا منها في مزجر الكلب ودعّم حجته بأدلات دامغة من الكتاب والسنة مما يثبت تحريمها من الله سبحانه وتعالى، وأظهر الإمام غرضه (إصلاح المجتمع) في الفقرة الأخيرة عند الدعاء الاختتامي بقوله "نسأل الله تعالى أن يعيننا على إصلاح أنفسنا وتقويم أعوجاجنا ...".

2- أجزاء الخطبة: تتضمن الخطبة عناصر ثلاثة، افتتاح، وجوهر، واختتام، وشكل الخطب لدى هذا الإمام ينقسم إلى الشوطين بينهما فاصل يتمثل في جلوس مدة وجيزة مع دعاء قصيرة سرًّا ويقف الإمام عند إلقاء خطبته كشأن كل خطيب وواعظ وداع أن يقف أمام الجمع والجماعة وهم يستمعون ولهذا القيام تأثير بالغ في نفوس المستمعين والمخاطبين.

3- أسلوب الخطبة في الألفاظ والمعاني:

كان أسلوب هذه الخطبة أسلوب بليغ، فعبارته فصيحة خالية من التعقيد والغموض، وموجزة بدون التطويل، قوية التأثير وله أثر بالغ في نفوس السامعين مما يجلب الطاعة والاهتمام خصوصا في استمالة نفوس السامعين بقوله المكرّر "عباد الله" كلما سمع المخاطب هذا القول يفرح ويطمئن قلبه ويسرع بالجواب إلى ما يُدعى إلىه وينهى عنه، وفي معانيها وضوح أدت إلى معنى المراد ليس فيها ايهام ولا إبهام.

4- ترابط الأفكار:

لقد أحسن الشيخ في ترتيب أفكاره فبدأ بذكر الأية الدالة على تحريم تلك الأخلاق السيئة ثم شرع في بيان وجه التحريم في الأية مدعماً بالحديث النبوي الشريف ثم الختام، ولكن نرى أن الحديث النبوي الذي ذكره الإمام في آخر خطبته (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ينبغي أن يتصل بالفقرة الرابعة لينسجم مع ما يدل عليه الحديث.

الخاتمة:

يبدو في السطور السابقة أن خطبة الجمعة أساس ووسائل لنشر الدعوة الإسلامية وأن لها دوراً كبيراً في إصلاح المجتمع الإسلامي خصوصاً في مجتمعنا النيجيري، كما ركزت الخطبة المعرضة على خُلق سيّء اشتهر في مجتمعنا وهو

"سوء الظن بالغير" قالها الإمام لغرض إصلاح المجتمع على هذا الخلق الشنيع، وعرض الباحث الجوانب الثلاثة الهامة التي أثرت فيها خطبة الجمعة لكونها من ضرورات الحياة، ولا يخفى دور خطبة الجمعة –مهما قل- في إصلاح هذا المجتمع النيجيري.

الهوامش

1- أحمد حسن الزيات، "تاريخ الأدب العربي"، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة عشر 2011م، ص: 18

2- علي محفوظ، "فنّ الخطابة وإعداد الخطيب"، دار الاعتصام، غير مؤرخ، ص ص: 21-22

3- المرجع نفسه، ص: 32

4- زكريا إدريس أوبَو حسين، "المأدبة الأدبية"، لطلاب العربية في إفريقيا الغربية، الطبعة الثانية 2007م، دار النور، أوتشى، نيجيريا، ص: 46

5- على محفوظ، المرجع نفسه، ص: 24

6- عثمان عبد السلام محمّد الثقافي، "خلاصة التاريخ الإسلامي"، الطبعة الأولى، دار النور أوتشى 2003م، ص: 5

7- نجم الدين إشولا راجي، "مذكرة أعدها لطلاب قسم اللغة العربية بجامعة إلورن" (المستوى الثانية)، 2003م، ص ص: 22-23

8- أحمد حسن الزيات، المرجع نفسه، ص ص: 137-138

9- نجم الدين إشولا راجي، المرجع نفسه، ص: 25

10- المرجع نفسه، ص ص: 25-26

11- أحمد حسن الزيات، المرجع نفسه، ص ص: 159-160

12- المرجع نفسه، ص: 355

13- المرجع نفسه، ص: 358

14- أحمد سعد الدين الكاتبي إبراهيم، "الخطب العربية المنبرية للشيخ عثمان بن فودي: عرض ونقد في تطور الأدب العربي في ديار نيجيريا".

15- المرجع نفسه، ص: 90

16- د. صالح بن حميد، "خطبة الجمعة وأثرها في إصلاح المجتمع"، 5/1/2016 khutabaa.com

17- نجم الدين إشولا راجي، المرجع نفسه، ص: 21

18- د. صالح بن حميد، المرجع نفسه.

19- المرجع نفسه.

20- المرجع نفسه.

21- المرجع نفسه.

22- المرجع نفسه.

23- عهود ناصر الحسب، "الخطابة السياسية وفن التواصل مع الجماهير"، www.bna.bh 14/12/2018

24- المرجع نفسه.

25- المرجع نفسه.

26- عبد الحليم عمار غربي، "دور خطبة الجمعة في معالجة المشكلات الاقتصادية"، giem.kantakji.com 7/1/2016

27- المرجع نفسه.

28- المرجع نفسه.

29- المرجع نفسه.

30- مقابلة شخصية بين الإمام حسن عبد الله القادري وبين الباحث يوم السبت 2010/9/26م، في داره بأوكيكيري في الساعة العاشر صباحًا.

31- المرجع نفسه.

32- المرجع نفسه.

33- من خطب الشيخ حسن عبد الله القادري (مخطوطة).